مالك سمارة *

من «احتلال الأرض» إلى «احتلال البحر»: إسرائيل بين حاييم بياليك وإيريز بيطون

ملخّص تجريدي

تبحث الزاوية الأدبية لهذا العدد في السياق الدلالي/ الخطابي لثيمة البحر في قصائد شاعرين صهيونيين يمثّل كلّ منهما أيقونة زمانه: حاييم بياليك وإيريز بيطون. يبدو الشعر هنا، باعتباره فنّ المجاز والاستعارات، مدخلًا جيّدًا لتتبّع المعاني الرمزيّة لتينك الدلالتين وتجلّياتهما في الخطاب الإسرائيلي، أو لنقل، في الثقافة الجمعية (الإيثوس) لمجتمعه. الخلاصة التي يمكن استنتاجها من قراءة أشعار حاييم بياليك هي أن هذا الأخير لم تتملّكه حماسة كبيرة حيال البحر. ذلك الفضاء الأزرق الفسيح لم يكن في مخياله الشعري إلا محطّة رحيل مؤقّتة؛ طقسَ عبور في اتجاه «أرض صهيون»، حيث اليوتوبيا التي تتكامل عندها البدايات والنهايات بلا أزمنة فاصلة. البحر، عند بياليك، هو امتداد للمنفى، لا لـ«أرض إسرائيل»، والمنفى بالنسبة إليه، كما للصهيونية، منفيّ تمامًا. لكن تلك الرؤية لا تستقيم بالنسبة لإيريز بيطون، اليهودي الجزائري الذي انتقل «على عجَل» من المتوسّط إلى المتوسّط. البحر بالنسبة لبيطون لم يكن مجرّد محطّة رحيل أو منفىً، بل جزءًا من الجغرافيا، وتذكارًا ثقافيًّا بين ضفّتين. المتوسّط عند بيطون ليس «طقس عبور»: لا رحلة بالمعنى الحقيقي والمجازي لذلك الشاعر الشرقي ـــــ الرحلة تبدأ لحظة الوصول؛ هناك في «المعبروت»، حيث يخلع العابرون عنهم «شرقَهم» في طريقهم إلى أن يصبحوا «يهودًا جددًا».

الانتقال من حاييم بياليك، الأب الروحي للقصيدة القوميّة المؤسِّسة، إلى إيريز بيطون، الأب الروحي للقصيدة الشرقية «الثورية»، يعني الانتقال بين زمنين: زمن «الييشوف» وتأسيس الدولة -زمن البناء القومي، وتشكيل هويّة «اليهودي الجديد»، مختزلة

* باحث متخصص في الدراسات الاسرائيلية.

في صـــورة «الصابـــرا»- إلى زمـــن «إسرائيـــل الثانيـــة» -إسرائيـــل «المعولمـــة»، و«الشرقيـــة» أكثـــر مـــن أي وقـــت مـــضى. غيـــاب البحـــر في الفـــترة التـــي تشـــكّلت فيهـــا ذائقـــة بياليـــك الأدبيـــة واكـــب غيابـــه في الخطـــاب العـــام الصهيونـــي. ذلـــك الغيـــاب، إلى جانـــب تماهيـــه مـــع فكـــرة «نفـــي المنفـــى»، زامـــن حقبـــة كانـــت اليابســـة فيهـــا جوهـــر الـــصراع- حينمـــا اســـتوطن الصهاينـــة الجبـــال (وغيرهـــا)، وصكّـــوا شـــعار «احتـــلال العمـــل»، و«احتـــلال الأرض». لكـــن اليـــوم، بعدمـــا أفـــل زمـــن «إسرائيـــل الأولى»، لا يجـــد بيطـــون مشـــكلة في تعريـــف نفســـه عـــلى أنّـــه «متوسّـــطي» (mediterranean)، بـــدلًا مـــن «شرقـــي» أو «شرق أوســـطي». وبمعـــزل عـــن دلالات تلـــك المفاهيـــم، التـــي ســـنتناولها لاحقًـــا، يبقـــى الأهـــمّ أن دعـــوة بيطـــون ليســـت متجـــذّرة في التجربـــة الشـــخصيّة لـــه بوصفـــه يهوديًّـــا مـــن بيئـــة المتوسّـــط؛ هـــي بالأحـــرى تجـــد مـــا يعضدهـــا لـــدى اليمـــين الصهيونـــي، ولـــدى طائفـــة مـــن الكتـــاب والنقـــاد الذيـــن ينـــادون اليـــوم بإعـــادة تعريـــف إسرائيـــل نفســـها كأمـــة بحريّـــة.[1] لا يحمـــل هـــذا التعريـــف بعـــدًا اســـتراتيجيًّا/ سياســـيًّا فحســـب، بـــل بعـــدًا تاريخيًّـــا عابـــرًا للأزمنـــة: مفهـــوم الأمـــة «المتوسّـــطية»، تبعًـــا لذلـــك، يتحـــرّى «تطبيـــع» إسرائيـــل مـــع الســـياق التاريخـــي، بوصفهـــا دولـــة العبرانيـــين الذيـــن ســـكنوا تلـــك الســـواحل منـــذ القـــدم، ويتحـــرّى أيضًـــا موضعتهـــا في الســـياق الثقـــافي والجغـــرافي، دولـــةً «متأصلـــة» بـــين محيطهـــا العربـــي وامتدادهـــا الأوروبـــي، بـــين الـــشرق والغـــرب.

اليـــوم وقـــد أصبـــح الـــصراع عـــلى الأرض محســـومًا أكثـــر مـــن أي وقـــت مـــضى، وأخـــذ ينتقـــل شـــيئًا فشـــيئًا إلى البحـــر، حيـــث تكمـــن التحدّيـــات والفـــرص، وتكمـــن حقـــول الغـــاز التـــي فتحـــت لإسرائيـــل أبـــواب المتوسّـــط، وأبـــواب الإقليـــم كلّـــه؛ تبـــدو إسرائيـــل أقـــرب إلى بحـــر بيطـــون منهـــا إلى يابســـة بياليـــك، ومهمّتنـــا هنـــا هـــي إســـقاط النقـــد الأدبـــي عـــلى الســـياق الاجتماعي/الســـياسي الـــذي تطـــوّرت فيـــه الثّيمتـــان.

بياليك: البحر والمنفى

«هـــذا هـــو طريـــق الترحـــال إلى إسرائيـــل: هـــو يبـــدأ في أرض إسرائيـــل، وينتهـــي هنـــاك! نحـــن نرتحـــل مـــن الـــشرق إلى الجنـــوب، مـــن الجنـــوب إلى الشـــمال، ومـــن الشـــمال إيابًـــا نحـــو الـــشرق؛ لأننـــا الآن نعـــود إلى أرض إسرائيـــل».[2]

بياليك

.....

حاييم بياليك.

البدايـــة مـــن عنـــد بياليـــك تحيـــل إلى بدايـــة الشـــعر الصهيونـــي الحديـــث. المقولـــة المبوّبـــة أعـــلاه عـــلى لســـان بياليـــك تظهـــر في مقالـــة الشـــاعر الإسرائيـــلي ســـامي شـــلوم شـــطريت: «مراجعـــة بياليـــك: قـــراءة شرقيّـــة متطرّفـــة للقصيـــدة القوميـــة اليهوديـــة». يقتبـــس شـــطريت، وهـــو القـــارئ كتابـــات بياليـــك جيّـــدًا، تلـــك المقولـــة دون أن يقـــدّم توثيقًـــا أو تاريخًـــا محدّديـــن، لكنهـــا لا محالـــة قيلـــت قبـــل العـــام ٤٨، بالنظـــر إلى تاريـــخ وفـــاة بياليـــك (١٩٣٤)، وعـــلى الأغلـــب، في الفـــترة التـــي كانـــت ترســـو فيهـــا الســـفن الصهيونيـــة عـــلى الضفـــة الشرقيـــة للمتوسّـــط محمّلـــة بالمســـتوطنين.

يقـــدّم لنـــا بياليـــك، في مقولتـــه تلـــك، توصيفـــه الخـــاص للرحلـــة إلى «أرض صهيـــون»، وهـــو توصيـــف مختـــزل إلى حـــدّ بعيـــد: «نحـــن نرتحـــل مـــن الـــشرق إلى الجنـــوب، مـــن الجنـــوب إلى الشـــمال، ومـــن الشـــمال إيابًـــا نحـــو الـــشرق». كلّ الاتّجاهـــات عنـــد بياليـــك شرق؛ الـــشرق مبتـــدأ الرحلـــة ومنتهاهـــا، هنـــاك حيـــث تتوحّـــد الجهـــات كلّهـــا أخـــيرًا، إلّا الغـــرب. يبـــدو الأمـــر لافتًـــا هنـــا لـــدى قراءتـــه في الســـياق الســـياسي/الاجتماعي للحقبـــة التـــي «ازدهـــر» فيهـــا شـــعر بياليـــك. الغـــرب هنـــا غائـــب عـــن احتمـــالات البوصلـــة، ومـــآلات الرحلـــة، وعـــن البدايـــات والنهايـــات. الغـــرب الـــذي

بوسعنا القول إن البحر كان العنصر الأكثر تهميشًا بين عناصر الطبيعة التي زخرت بها أشعار بياليك. في المجلّد الذي يحتوي مجموعة واسعة من قصائده المختارة، على سبيل المثال، لا تردُ كلمة بحر، هكذا بشكلها المجرّد، إلا في مواضع قليلة (١٤ موضعًا على وجه التحديد)، كما انها لا تحيل إلى المعنى المباشر للبحر.

انغرست فيه بذرة الصهيونية، وظلّت تستمدّ من تربته الثقافية والفكرية والحضارية ماء وجودها، يبدو منفيًّا تمامًا بالنسبة لبياليك: ربّما مثلما كان المنفى ذاته منفيًّا بالنسبة للصهيونية. لم يسقط الغرب اعتباطًا هنا، وسقوط الكلمات بالنسبة للشاعر، كما ظهورها، يحمل دلالات لا يمكن تفويتها. حتّى المحو في الأدب قد يحيل إلى المجاز، والمجاز هنا ليس حبيس النص الأدبي، بل هو مكنون في السياق الذي عاش فيه بياليك، وأعاد إنتاج معانيه شعرًا. يمكن القول إذن إن بياليك يتقمّص هنا مقولة صهيونية مؤسّسة؛ هي «نفي المنفى».

ربّما كان بياليك شاعر القصيدة «الأرض-إسرائيلية» الأوّل في وقته. هذا الموقف تجاه المنفى لم يكن موقفًا شخصيًّا، بل صورة «كلاسيكيّة» (مثل شعره) عن الخطاب الصهيوني المهيمن في حينها؛ خطاب «اليهودي الجديد»، و«الصهيوني الطليعي»؛ خطاب «احتلال الأرض» و«احتلال العمل»، مختزلًا في مقولة «جئنا هنا لكي نبني الأرض ونُبنى فيها»، بكل ما تستبطنه من معانٍ روحية وجسدية، مجازيّة وواقعية. نراه مثلًا يقول في إحدى قصائده: «مرحى لعَوْدِك، أيّتها العصفورة/ من بلاد الدفء إلى شباكي/ لشدوك تاقت روحي المهجورة/ مذ حرمني الشتاء رؤياك/ غنّي وحدّثيني، عصفورتي الشجية/ عن بدائع أرضٍ وراء المسافات/ هل في البلاد الدافئة البهيّة/ تستحكم الشرور والملمّات؟/ أتحملين سلامًا من إخوتي في صهيون/ إخوتي البعيدين القريبين؟/ يا لسعادتهم.. أوهل يعلَمون عن ألم بي لا يستكين؟/ أوَهل يعلمون كم خصمًا يتربص بي، وكم من عدوّ تداعى عليّ/ عن بلاد البدائع غنِّ لي/ حيث يحلّ الربيع الأبديّ»،[٣] وحتّى نتلمّس الفارق الدلالي بين يهوديّ المنفى في القصيدة المذكورة، ذاك الذي يواجه خصومًا وبلايا لا حصر لها، وينشد في شتاء المنفى ربيع البلاد الأزلي؛ بوسعنا أن نتأمل كيف يصوّر في قصيدة أخرى «يهودي البلاد»، «الصابرا»، النموذج المثالي الذي صدّرته الصهيونية عن «اليهودي الجديد»، حين يقول: «وأنت، أيها المحظوظ، لك السهول المفتوحة، والهواء الوفير للتنفس، وأشعّة الشمس الوافرة، والظلال أيضًا. إيه يا أخي العزيز، العمل والمكابدة هو أمر إلهي، عملك في البلاد ليس هباء، لا بدّ أن تشهد وقت المكافأة».

لكن المكافأة تلك لا تتأتّى إلا من خلال العلاقة مع الأرض؛ بالمعنى الرمزي: مع الجبل. في الواقع، لا يغيب – أو يغيَّب- المنفى وحدَه في شعر بياليك، بل تمّحي –أو تشوّه- دلالاته، وكلّ ما يمتّ له بصلة، حتى البحر ذاته. في قصائد بياليك، تنبجس المعاني وتتفاعل ضمن حقلين رئيسيّين: الوطن والمنفى (المنفيّ). ليس ثمّة حيّز وسيط بين المكانين. وحدَها الطيور (المتخيّلة) من تحتلّ المساحة الفاصلة، وتنقل الرسائل. هناك الوجود (الوطن) واللاوجود (المنفى)، وبينهما انقطاع تامّ، وقائم منذ الأزل. والجبل في الفضاء الأول؛ الجبل الراسخ منذ الأزل، والكامن في مكانه حاملًا رمزًا للبقاء والديمومة، الجبل الذي تتربّع عليه المستوطنة، بعيدًا عن المنافي وعوالم ما وراء البحار، هو من سيعلّم هذا المستوطن «المكابد» كيف يصبح صهيونيًّا؛ هو بالأحرى من سيمنحه «المكافأة». ذلك ما يكتبه بياليك في قصيدة أخرى: «الكرمل وهشارون (السهل الساحلي) ربّياني منذ ذلك الحين، مع صدر يقطر حليبًا دلّل طفولتي. وفوق قمم جبال العالم التي جعلتنا شعبًا شجاعًا، زادت الرياح النقية عظامي صلابة. فوق

مرتفعات جبال فرانكينسيس، وذروة تلال ميرراه (أسماء توراتية)، زرعت بذرة عدالة الرب، وفي البوق نفخت صفرة الحريّة».[٤]

إذن، بوسعنا أن نلاحظ هنا المزج بين الثيولوجي/الميثولوجي وبين الواقعي؛ بين «فرانكينسيس» والكرمل، بين هذا «الأزلي» الذي سيشهد نفخة البوق الأخيرة: صفرة «الحرية» الأبديّة، وبين ذاك الآني القائم، الذي «يقطر حليبًا». العالم في قصيدة بياليك تلك مُختزل في هذا الجبل الممتدّ حتّى ذروة الأزل. والجبل، أيضًا، هو الرمز الذي تنبجس منه المعاني كلّها؛ رمز البداية والنهاية (حيث تصبح كلّ الجهات شرقًا)، أمّا البحر، حيث تتداخل الجهات كلّها، فهو غائب. لربّما نلمس هذا أكثر حينما يقول في موضع آخر: «ألا يا أيها الطير، الطير القادم من وطني، أخبرني، ماذا رأيت في بلادي؟ الطير: هناك الكثير لأقوله، ماذا عساي أقول؟ هناك الجمال والنعمة، المدن والمستعمرات، الوديان والجبال».[٥] لكن لا بحر بين هذا «الكثير». في الواقع، دلالة البحر لا تستقيم هنا بين كلّ تلك المتناظرات، حيث السفح مفتوح على الوادي، والوادي مفتوح على السفح، والمعنى بينهما كامن، أمّا الشاطئ، مثلًا، فهو مفتوح على البحر، والبحر مشرع أمام المعاني والجهات -هذا البحر مفتوح على المنفى، والمنفى لا حضور له في حضرة الجبل.

طبقًا لحدود هذه الدراسة، بوسعنا القول إن البحر كان العنصر الأكثر تهميشًا بين عناصر الطبيعة التي زخرت بها أشعار بياليك. في المجلّد الذي يحتوي مجموعة واسعة من قصائده المختارة، على سبيل المثال، لا ترِدُ كلمة بحر، هكذا بشكلها المجرّد، إلا في مواضع قليلة (١٤ موضعًا على وجه التحديد)، والأهم من ذلك، بعيدًا عن التجريد، هو أنّ المفردات هنا لا تحيل إلى المعنى المباشر للبحر، ووجودها في مواضع الكلام لا يعدو كونه استعارةً مجازيّة في الغالب؛ كما في قصيدته «بحر الصمت»،[٦] أو كقوله في موضع آخر: «وحب الرب أقوى من الموت، وقلبه مغمور ببحر الحنين»،[٧] أو في موضع ثالث: «وبحر الشغف يهدر في قلوب الشباب»؛[٨] يبقى حضور البحر، في كلّ تلك المواضع، حضورًا رمزيًّا فحسب، وهو لا يحيل إلى حضور فعليّ للبحر بالنسبة للشاعر، أو إلى تجربة فريدة لديه؛ بل يحيل إلى معانيه الرمزية الواسعة: البحر بوصفه دالًّا على العمق؛ على السكون تارة أو على الهدير. تبعًا لذلك، إذا أمكن لنا ردّ المجاز إلى تعريفه الاصطلاحي، وهو «صرف اللفظ عن معناه الحرفيّ إلى معانٍ أخرى»، فأمامنا مساحة لأخذ النقد إلى زوايا أبعد: البحر كان مغيّبًا هنا في لغة الشعر.

لكن حتّى نعيد النقاش إلى سكّته، تبقى الإشكالية الرئيسية، ضمن مغازي هذه الدراسة، هي غياب البحر عن مشهديّة بياليك، وهو غياب لم يكن عرضيًّا بالضرورة. مدعاة هذا القول هو أن وجود هذا البحر، في الأساس، لم يكن عرضيًّا بالنسبة لبياليك؛ فقد كان «طقس عبوره» إلى «أرض الخلاص»، ولم يبتعد، للحظة، عن سفوح جبال الكرمل التي ما انفكّ يتغنّى بها. والشعر بوصفه نمطًا من أنماط التعبير وإنتاج المعنى، يظلّ في أبسط معانيه عملية تفاعل مستمرّة مع الأشياء والرموز المحيطة، مع حقول المعنى المُعاشة. بمعنى آخر: لا يمكن ألا يكون النيل ثيمةً مركزية بالنسبة لشعراء بيئته، وكذا الصحراء لدى شعراء البداوة، وهذا التلاقي هو ما يمكن اعتباره تلاقيًا «عرضيًّا». أما بالنسبة لبياليك، إذا نظرنا إلى هويّته الصهيونية، فالبحر كان حاضرًا في الواقع، وراء مشهد الكرمل، مغيّبًا في الوعي والمخيال؛ وإذا حاكمنا هويّته الشعرية، فالبحر كان موجودًا أيضًا بوصفه أداة معجميّة مفتوحةً على معانٍ مكثفة، لكنّه ظلّ غائبًا في اللغة؛ إلا باعتباره مجازًا.

بكلمات أكثر تحديدًا ومباشرة، لم يكن هذا الفضاء المختزل، حتّى لا نقول المشوّه، مرسومًا في ذهن بياليك وحده وحسب: ثقافة الجبل تلك تستبطن «الإيثوس» الجمعيّ الذي بثّته الصهيونية العمالية/الاشتراكيّة المؤسِّسة في روح الجماعة المستوطنة. قرينة ذلك أن المسألة هنا لا تقتصر على بياليك؛ فالعديد من الشعراء والكتاب والفنانين الصهاينة الأوائل، كما يقول الباحث دافيد أوحنا بنبرة استغراب: «كتبوا وأنتجوا في إسرائيل كما لو أنهم لم يسمعوا تلاطم الموج على الشواطئ الشرقية للمتوسط، كما لو أن رجال البر والصحراء استبدّوا برجال البحر والشاطئ».[٩] بوسعنا هنا إذن أن نلاحظ ملامح عمليّة تشكيل اجتماعي أنتجت تلك «الثقافة المهيمنة». ومثل ذلك النوع من الثقافة، كما يصوّر شارون روتبارد، يبقى «واسع الانتشار بقدر ما هو خفي؛ هو مجسَّد في ما لا مجال للتفكير به».[١٠]

عطفًا على ذلك، فإن كلّ ما يحاول بياليك تلقيننا إياه، ضمن النماذج المطروحة آنفًا، هو مرتبط في

كلّ ما يحاول بياليك تلقيننا إياه، ضمن النماذج المطروحة آنفًا، هو مرتبط في جوهره بأسطورتين دمغتا الثقافة المهيمنة لأبناء ذلك الجيل: «احتلال الأرض» و «نفي المنفى»، وكلاهما متّصل جذريًا بالبحر: لا حضور لهذا الأزرق المفتوح على الماضي والاحتمالات المقلقة، في الوقت الذي كان الصراع فيه على الأرض حاسمًا.

جوهره بأسطورتين دمغتا الثقافة المهيمنة لأبناء ذلك الجيل: «احتلال الأرض» و«نفي المنفى»، وكلاهما متّصل جذريًّا بالبحر: لا حضور لهذا الأزرق المفتوح على الماضي والاحتمالات المقلقة، في الوقت الذي كان الصراع فيه على الأرض حاسمًا. الفضاء المرسوم في مخيال بياليك لم يكن إذن منفصلًا عن السياقية التي أنتجته: سياقية الاستعمار وإعادة هندسة المكان في المخيال قبل تمثّله على أرض الواقع. ذلك المشهد الذي يختفي فيه البحر قسريًّا، ضمن منطق يقوم على «المحو» وإعادة إنتاج المكان وفق الحاجات الاستعماريّة؛ ربّما لا يختلف كثيرًا عن المشهد الذي تصوّره المهندسون الصهاينة ليافا، مثلًا، بعد محو كلّ تذكار أصيل لتاريخ المكان، أو بالأحرى، حتّى لا نشطّ بعيدًا عن السياق؛ هو لا يختلف عن المشهد الذي تصوّره المخطّطون الأوائل لتل أبيب، المدينة التي كانت «شوارعها تهرب من شواطئ البحر كما لو أنّها خائفة»، كما كتبت الناقدة هيدا بوشيز في إحدى مقالاتها في «هآرتس» عام ١٩٧٨،[١١] بكلمات موجزة: ذاك لم يكن إلا مخيال مستعمر.

البساط السحري: بين بحر الإسكندرية ويافا

بين أواخر عام ١٩٤٩ و١٩٥٠، الفترة التي باشرت خلالها الصهيونية العماليّة/الأشكنازيّة إسقاط خطابها الأيديولوجي على هيكل الدولة الوليدة، وصل أكثر من ٤٠ ألف يهودي يمنيّ (وسواهم) إلى إسرائيل في عمليّة ترحيل سرّية نُفذت على مراحل.[١٢] ولأن مثل تلك العمليّات لا تمضي عادة في إسرائيل دون تسميات احتفائيّة، فقد ارتبطت العمليّة بأكثر من اسم، منها على سبيل المثال: «على جناح الطير»، وهي التسمية الرّسمية للحكومة،[١٣] وهناك اسم آخر، شعبويّ أكثر، وذو لمسة «فانتازية»، وهو «البساط السحري». اللافت في الأمر أن العمليّة ارتبطت بالاسم الثاني لحظة الكشف في صحيفة «معاريف»، كما يظهر في قصاصة من الخبر، وليس ثمّة ما يوحي فيها بأنّ تلك المقولة كانت من خيال المحرّر.[١٤] «الناس» منذ ذلك الحين صاروا يكنّون رحلة اليمنيين تلك بـ«البساط السحري»، كما يشرح جيان بلافيلد في كتابه عن سيرة غولدا مائير.[١٥] ما يجعل الأمر إشكاليًّا وباعثًا على التأمل؛ هو أن ثمّة صعوبة في الإمساك بجذر تلك التسمية؛ وكأنها ذلك الصنف من المقولات التي تتشكّل بين دوائر الأيديولوجيا اليوميّة، دون أن يُعرف قائلها، أو لربّما لا يكون لها قائل من أساسه، ثم لا تلبث حتى تصبح سارية بفعل قوّة الخطاب المهيمن لا المراسيم الرسميّة.

لعلّ أوّل ما يتبادر إلى الذهن في استحضار «رمز» البساط السحريّ هنا هو البعد «الاستشراقي» فيها، وذلك ما لاحظته إيلا شوحط سابقًا.[١٦] ذلك ما يتّفق معه الناقد حنان حيفر كذلك، لكنه يستدرك على ذلك، في لمسة نقد أدبي بارعة، ويحيل المفهوم إلى أصوله اللغوية: يرى حيفر أن تلك التسمية تستبطن عمليّة «إقصاء للشرقيين من الرواية الصهيونيّة ككل، على اعتبار أن هجرتهم ممثّلة وكأنه انتقال سلبيّ في فضاء تواصليّ، والانتقال الذي وقع بالفعل يصبح معدومًا من خلال ترجمته إلى مفهوم استشراقيّ: البساط السحري الذي بمقدوره الطيران. هذا التوظيف النابع من هيمنة ثقافية لمصطلح (البساط السحري) يوصّف هجرة يهود اليمن على أنها انتقال لا ينطوي على أي فاصل؛ ليس ثمّة عبور دراماتيكيٌّ (في تلك الرحلة)، مثل ذلك العبور الذي خاضه صهاينة الغرب

عـبر البحـر.. الخطـاب المهيمـن يقـدّم (يهـوديّ اليمـن) أيضًـا عـلى أنّـه هامـشيّ ودونـيّ؛ غـير قـادر عـلى الوفـاء بالوعـد الصهيونـي المتعلّـق بالعبـور الدراماتيكـي للبحـر مـن أوروبـا إلى الـشرق».[١٧]

لكـن ذلـك الطـرح، عـلى عمـق دلالتـه، لا يمنـع مـن أخـذ النقـد إلى مديـات أبعـد، وتحديـدًا إلى السـياق البلاغـي الـذي يتأصّـل فيـه كلا المفهومـين. في المسـمّى الأول، «عـلى جنـاح الطـير»، ثمّـة تيمّـن بآيتـين مـن سـفري إشـعيا والخـروج:[١٨] «أنتـم رأيتـم مـا صنعـت بالمصريـين. وأنـا حملتكـم عـلى أجنحـة النسـور وجئـت بكـم إلي» (الخـروج ٤:١٩)؛ «وأمـا أولئـك الذيـن ينتظـرون الـرب فسـيجدّدون قواهـم؛ سـيحلّقون عاليًـا بأجنحـة كالنسـور، سـيركضون ولا يتعبـون، وسيمشـون ولا تثقـل وطأتهـم» (إشـعيا: ٣١:٤٠). قياسًـا عـلى ذلـك، تبـدو مقولـة «البسـاط السـحري» أبعـد مـن كونهـا غائبـة عـن الوعـي الجمعـي، ومـن ثـمّ معدومـة الدلالـة، بالنسـبة لمسـتوطني الدولـة القادمـين مـن الـشرق؛ هـي أيضًـا، فضـلًا عـن «شـذوذها» وغرابتهـا، منزوعـة مـن هالـة «القداسـة» والروح المسـيانيّة، ومـن ثـمّ مـن الاسـتعداد العـام لقبـول أولئـك الواصلـين مـن الـشرق «كمخلَّصـين». ثمّـة ترحيـل جـذريّ للمعنـى هنـا مـن مـؤدّاه الميثولوجي/التوراتـي، إلى مـؤدّى خـرافي/خيـاليّ، لتتّخـذ الرحلـة هنـا شـكلًا أقـرب إلى «السـحر» منـه إلى «المعجـزة الخلاصيّـة». لا يلغـي ذلـك البسـاط السـحري المتصـوّر تفاصيـل المسـافة فقـط، كمـا يقـول حيفـر، هـو بالأحـرى لا يحيـل إلى «الوصـول»: لا «وطـن» في حكايـات بسـاط السـحر؛ ثمّـة ترحـال مسـتمرّ مـع الريـح، وتيـه مسـتديم.

لعـلّ مـا يرجّح أحقيّـة هـذا الادعاء؛ هـو أن هـذا التحوير مـن البعـد التوراتي/الخـلاصي إلى البعـد الاسـتشراقي/الحكاياتـي كان حـاضرًا أيضًـا في عمليـات ترحيـل أخـرى، مثـل عمليـة ترحيـل يهـود العـراق، التـي اتّخـذت اسـمين: الأول هـو «عـزرا ونحميـا» (وهمـا مـن أنبيـاء الديانـة اليهوديّـة، واللـذان خطّـا سـفريهما أثنـاء السـبي البابـلي)، والاسـم الثانـي هـو «عـلي بابـا».[١٩] حتّـى الاسـم الـذي أطلق عـلى عمليّـة ترحيـل يهـود المغـرب، وهـو «عمليّـة ياخـين»، لـم يكـن ذا صـلات خلاصية/مسـيانية، رغـم أنـه يحمـل أصـولًا توراتيّـة. إذا اعتمدنـا قـراءة دان رافيـف ويـوسي ميلمـان (وهـي قـراءة مبـاشرة ومجـرّدة)، فبوسـعنا أن نلمـس اسـتخدامًا وظيفيًّا/أداتيًّـا لذلـك الرمـز التوراتـي: «ياخـين» كان اسـمًا لدعامـة مـن اثنتـين أسـندتا هيـكل الملـك سـلمان المقـدّس، «ومـن ثـمّ فـإن إسرائيـل اعتـبرت الهجـرة ركيـزة أساسـية لدعـم وجـود الدولـة اليهوديّـة»،[٢٠] وإذا مـا أمكـن لنـا النظـر مـن زاويـة أخـرى لهـذا الرمـز، زاويـة أكثـر نقديّـة، فـإن ذلـك يعنـي الكثـير في ظـلّ واقـع كان الشرقـي فيـه يـدًا عاملـة، وثقـلًا ديمغرافيًّـا لا غنًـى عنـه في دولـة ناشـئة.

تبعًـا لذلـك، يمكـن القـول إن المشـترك بالنسـبة لهـؤلاء هـو أن المفـردات والرمـوز والمسـمّيات التي أحاطـت بعمليّات ترحيلهـم أفضـت إلى إقصائهـم مـن روايـات «الخـلاص» الصهيونيّـة المهيمنـة، ومهّـدت لاسـتقبالهم كفئـة «دون»، «غـير «مخلّصـة»، ولا تـزال بحاجـة إلى تنويـر الأشـكنازي حتـى تسـتحق خلاصهـا. مـا كان مشـتركًا بالنسـبة لهـؤلاء جميعًـا، الواصلـين جـوًّا منهـم والعابريـن طريـق البحـر عـلى السـواء، هـو، كمـا يسـتنتج حنـان حيفـر: «غيـاب العبـور البحـري الاصطلاحـيّ الـذي يظهـر بثبـات في الوصـف الصهيونـي المهيمـن؛ العبـور الرمـزي والمعيـاري للبحـر المتوسّـط ذاتـه الـذي يحتضـن شـاطئي الإسـكندرية وتـل أبيـب معًـا. وفي المقابـل، حينمـا تتضمّـن الهجـرة وصـولًا مـن بغـداد عـبر الجـوّ؛ فـإن ثمّـة تقدّمًـا عـبر مسـاحة واحـدة ومتواصلـة تربـط الأرض الأم بإسرائيـل».[٢١]

في هـذا السـياق، مثـلًا، ينقـل سـليم تمـاري عـن عالـم الاجتمـاع يهـودا شـنهاف قولـه إن «العـودة إلى صهيـون، كشـعار صهيونـي، لـم تكـن تعنـي شـيئًا لهـؤلاء اليهـود الشرقيـين، ثقافيًّـا أو أيديولوجيًّـا، لأنهـم نشـأوا أصـلًا في أرض الميعـاد»، أمـا بالنسـبة إلى يهـود العـراق وسـورية، كمـا يضيـف تمـاري، فـإن «الهجـرة إلى فلسـطين لـم تكـن في نظرهـم هجـرة إلى صهيـون، وإنمـا كانـت انتقـالًا مـن أحـد أجـزاء العالـم العربـي إلى جـزء آخـر، لا يرافقـه أي مغـزى جغـرافي تشـوبه القداسـة. وحتـى بعـد النكبـة، علّـق مردخـاي بـن بـورات، عندمـا سـألوه عـن شـعوره نتيجـة الانتقـال مـن بغـداد إلى تـل أبيـب: لقـد أتيـت مـن بيئـة عربيـة، وبقيـت عـلى اتصـال بهـا، لـم أغـير محيطـي، وإنمـا انتقلـتُ مـن مـكان إلى آخـر ضمـن هـذا المحيـط».[٢٢]

عطفًـا عـلى ذلـك، يقـدّم لنـا حنـان حيفـر قـراءة جوهريّـة لفهـم السـياق الـذي نشـأت فيـه تلـك الازدواجيّـة المكانيّـة، إن صـحّ التعبـير، فالبحـر كان ثيمـة مركزيّـة في روايـة الهجـرة بالنسـبة ليهـود أوروبـا؛ هـو كان درب العبـور الأسـطوري إلى «أرض صهيـون»، والنقلـة الرمزيـة بـين المـاضي والمسـتقبل، والأهـم أنّـه كان محطّـة عابـرة، لا بـدّ مـن مرورهـا كمـا لا بـدّ مـن نسـيانها، غـير أنّـه

لـم يـؤدّ هـذا الـدور بالنسـبة ليهـود شـمال أفريقيـا.[٢٣] حتّـى الاسـم الـذي كان يُطلـق عـلى «المهاجريـن» الأشـكناز في فـترة الانتـداب البريطانـي؛ كان يكـرّس ذلـك الـدور «الوظيفـي» للبحـر، بوصفـه رمـزًا انتقاليًّـا: «المتسـلّق» (معبيـل) -وليـس «الصاعـد» (عوليـه)- ذلـك مـا كان يكنّـى بـه المسـتوطن القاصـد شـواطئ يافـا.[٢٤] حتّـى هـذا الاسـم كان يحيـل دلاليًّـا إلى الجبـل، قبـل أن يغيّـب تمامًـا في فـترة مـا بعـد قيـام الدولـة، لتحـلّ مكانـه مفـردة «المهاجر/الصاعـد، عوليـه»، التـي لـم تغيّـب أساسًـا.

تلـك الخلاصـة، إذن، تجيـز لنـا الاسـتنتاج بـأن «العـودة إلى صهيـون»، بالنسـبة للشرقيـين، لـم تكـن عـودة مكتملـة ووافيـة المراحـل في الروايـة الصهيونيّـة المهيمنـة: البحـر يغيـب تمامًـا عـن تلـك الرحلـة. هـو يغيـب حتّـى بالنسـبة لأولئـك الراحلـين عـبره، والمفارقـة هنـا هـي أنـه يغيـب بوصفـه حـاضرًا، أي بوصفـه امتـدادًا لبيئـة جغرافيّـة واحـدة؛ ونقطـة وصـل لا انقطـاع. ربّمـا لـم يكـن يهـودا شـنهاف ومردخـاي بـن بـورات يعـبّران عـن تلـك الازدواجيّـة الجغرافيّـة، كمـا سـبق وأسـلفنا، لأنهمـا انتقـلا جـوًّا (عـبر البسـاط السـحري) مـن بغـداد إلى تـل أبيـب فحسـب؛ ذلـك قـد يكـون أحـد الأسـباب، لكـن لا بـدّ وأن ثمّـة سـياقًا موازيًـا قـد ترسّـخت فيـه تلـك الازدواجيـة، وضمـن هـذا السـياق ذاتـه، بوسـعنا أيضًـا أن نقـرأ مـا كتبـه الأديـب اليهـودي المـصريّ، المهاجـر عـبر البحـر، إسـحق جورميزانـو جوريـن، في روايتـه «صيـف إسـكندراني»: «هنـا، في إسرائيـل، والتـي تبـدو أقـرب إلى شرق أوروبـا بالنسـبة لي، ربّمـا أكـون جالسًـا عـلى شـواطئ البلطيـق أيضًـا، أمـام امتـداد المسـافة التـي أشـعر بهـا من البحـر المتوسـط، الـذي أسـتطيع رؤيتـه مـن نافذتـي في تـل أبيـب. لهـذا أنـا حريـص عـلى أن أقـول قصـة حمـدي عـلي، وقصـة الإسـكندرية».[٢٥] ربّمـا لهـذا السـبب قرأ سـامي شـلوم شـطريت ذات مـرة قصيـدة بياليـك، عـن الطائـر الـذي يأتـي مـن أرض صهيـون ويخـبّر عنهـا للمنفـيّ في ليـالي الغربـة البـاردة (راجـع الفصـل الأول)، ثـمّ لـم يعـد لقـراءة بياليـك ثانيـة، لأنّ زميـلًا فلسـطينيًّا لـه في الجامعـة سـأله: كيـف تقـرأ بياليـك كشرقـيّ؟ وحينهـا فقـط أدرك أنّـه «لا يجـد نفسـه» في قصائـده.[٢٦]

إذن بوسـعنا أن نتلمّـس أثـرًا عكسـيًّا في تلـك العمليّـة؛ بمعنـى آخـر، كل هـذه «الأجـواء» الاسـتشراقية التـي خيّمـت عـلى عمليّـة التهجـير ربّمـا تكـون قـد خلقـت لـدى هـؤلاء القادمـين مـن الـشرق حالـة مـن «المقاومـة» الثقافيـة،

نفتـالي بينيـت، حيـث كان وزيـر المعـارف في ٢٠١٦، يصافـح ايريـز بيتـون بعـد تلقيـه تقريـر لجنـة يـوصي بتعزيـز حضـور ثقافـة اليهـود الشرقيـين في المـدارس الإسرائيليـة. (الصـورة عـن موقـع وزارة المعـارف الإسرائيليـة).

وليسـت الأيديولوجيّـة، للروايـة الصهيونيّـة المهيمنـة. النظـرة إليهـم عـلى أنّهـم امتـداد لمحيطهـم الشرقـي؛ ربّمـا تتقاطـع، وللمفارقـة، مـع البعـد الرمـزي لتلك الرحلـة، بوصفهـا لحظة انتقـال فجائيّ/خيـالي ضمن بيئـة جغرافيّـة واحـدة ومتّصلة. بمعنـى آخـر: تلـك الرحلـة، بتجلّياتهـا الرمزيّـة، عـزّزت لـدى هـؤلاء إحساسـهم بالاغـتراب؛ بالترحـال المسـتمرّ بـين الحـاضر والمـاضي، والـتردّد الدائـم بـين هويّتهـم السياسـية والثقافيّـة: بـين يهوديّتهـم وعروبتهـم. بكلمـات مختـصرة؛ تلـك الرحلـة غـذّت لديهـم الشـعور بـ»شرقيّتهـم»، وفي هـذا السـياق تحديـدًا، تشـكّلت ذاكـرة إيريـز بيطـون -ابـن جيـل «المعـبروت»- وارتسـم مخيالـه الشـعري.

إيريز بيطون: أنا ابن المتوسّط

«الآن أنا أكثر ذكاءً منك حتى
أيّها الطائر الأوروبي الصغير
في الشرق الأوسط

أنت ضيف بيتي» (إيريز بيطون/ديوان هديّة مغربيّة/١٩٧٦)[٢٧]

.....

ليـس لـدى بيطـون ذاكـرة بصريّـة طويلـة الأمـد؛ الشـاعر الـذي ولـد في الجزائـر، ونشـأ في إسرائيـل، فقـد بـصره يافعًـا حينمـا لعـب بقنبلـة يدويّـة، ولـم يبـصر

تقدّم لنا حياة بيطون، في جذورها، صورة «نموذجيّة» عن معضلة الشرقيّ في إسرائيل، فهو يقرّ، في إحدى مقابلاته، أن اسمه ليس «إيريز»؛ بل «يعيش»، وأن لأخته «بنينا» اسمًا آخر أيضًا، وهو «فريحة». يقول: «هم أعطوني هذا الاسم في المؤسسة، اسمي يعيش، إنه مزعج للأذن. لقد قبلت ذلك باعتباره جزءًا من المعايير المطلقة».

بعدها، إذن، إلا الفراغ، وسنواته الأولى في مخيّمات المهاجرين (التي اتّخذت لاحقًا في ١٩٥٠، بعد هجرة بيطون بسنتين، اسم المعبروت)، وبين شوارع اللد التي استقرّ فيها وعائلته لاحقًا.[٢٨] وفي واقع «المعاناة» الشخصيّة تلك، و«المعاناة» الجمعيّة بوصفه شرقيًّا/ سفارديًّا نشأ وسط ثقافة أشكنازيّة مهيمنة، كان شعر بيطون ينزع نحو الواقعيّة، بعيدًا عن النمط الكلاسيكي الذي تسيّده بياليك في السابق، لذا برز شعره بوصفه «شعرًا إثنيًّا»، وتطوّرت قصيدته لتتخذ وصف «قصيدة الهجرة»، أو «قصيدة المنفى».[٢٩] تبعًا لذلك، يمكننا القول إن بيطون لم يجسّد «ثورة» الشرقي في إسرائيل فحسب؛ بل جسّد، في نمطه الواقعي، ثورة «فنّية» على الأدبيّات «المثاليّة» التي تصبح لازمة في مرحلة تأسيس الدول، وضبط ثقافتها ضمن معياريّة واحدة. على ذلك، فإن ظهور بيطون في المشهد الشعريّ الإسرائيلي كان يوازي صعود بياليك خلال الحقبة التي عايشها.[٣٠]

تحفل قصائد بيطون بالمونولوج الداخلي؛ بمساءلة الذات دائمًا، في محاكاة شعريّة/رمزيّة للصراع الداخلي الذي يعشيه الشرقي بين ماضيه وحاضره، بين انتمائه الثقافي وانتمائه القومي، في بيئة صوّرها أولئك «الرياديّون الأوائل» على أنها أوروبيّة، وهي على رقعة الجغرافيا والتاريخ ليست إلا امتدادًا لـ«شرقه». من هذا المنطلق، نجد استعارة مكثّفة للمفردات والرموز العربيّة في قصائد بيطون، ولنا أن نقرأ ذلك حتّى في عناوين دواوينه: «هديّة مغربيّة»؛ «كتاب النعنع»، كما لنا أن نقرأ فيها أيضًا عملية الترحال الدائم بين الهويّات، والتنقّل الحنيني بين الوطن الماضي، والوطن الحاضر، كما في ديوانيه: «طائر بين القارّات»، و«طائر مغربي». ربّما لا يذكّرنا الحضور المتكرّر لذلك الطير المتخيّل بالحنين والترحال؛ أكثر ممّا يذكّرنا بـ«طير بياليك»، الذي يكرّر استحضاره في قصائده بوصفه رمزًا لـ«العودة» لا التطواف والسعي، كما يقول في قصيدته المغنّاة «ما وراء البحر»، والتي خبرها، على الأغلب، كلّ طفل من جيل إسرائيل الأوّل: «ما وراء البحر/ ما وراء البحر/ هل ستعرفين أيتها الطيور/ الدرب إلى هناك؟.../ ثمّة جنان لملك/ ما وراء البحر/ وطيور الجنّة، تعشّش فيها».[٣١] لا يشبه طائر بياليك، هذا الذي يعشّش في أرض «الملوك»، ذاك الذي يتخيّله بيطون سارحًا بين القارّات، ولعلّ في حديثه لصحيفة «هآرتس» ما يؤكّد على ذلك، حين يقول: «لطالما تخيّلت نفسي طائرًا ينفصل عن العشّ»،[٣٢] كما لو أن في هذا التحوير «ثورةً» معنويّة على رمزٍ مؤسس -على طير بياليك الذي لا يعرف إلا موطنًا واحدًا، هو «أرض صهيون»، ولا يتوق مناغيه إلا إليها. أو لنقل: كأن صراع «الشرق» و«الغرب» هنا انتقل إلى الرمز؛ وأن «الشرقي» هنا يزاحم «الأشكنازي» حتّى على ساحة المجاز.

تقدّم لنا حياة بيطون، في جذورها، صورة «نموذجيَّة» عن معضلة الشرقيّ في إسرائيل، فهو يقرّ، في إحدى مقابلاته، أن اسمه ليس «إيريز»؛ بل «يعيش»، وأن لأخته «بنينا» اسمًا آخر أيضًا (لكنه أكثر دلالة على أرضيّة الصراع الإثني في إسرائيل) وهو «فريحة». يقول: «هم أعطوني هذا الاسم في المؤسسة، اسمي يعيش، إنه مزعج للأذن. لقد قبلت ذلك باعتباره جزءًا من المعايير المطلقة؛ من كلّ شيء فعلوه ليبدو جيّدًا، وكلّ شيء جاء قبل ذلك ليبدو سيئًا».[٣٣] تبدو سيرة بيطون، كما نقرؤها في قصائده، معلّقة بين «إيريز» و«يعيش»، بين اسم الميلاد واسم

المؤسسة، وبين المغرب وإسرائيل، ولعلّه يلخّص تلك «الرحلة» اليوميّة إذ يقول في إحدى قصائده: «ما الذي تريدينه منّي يا رائحة العرق (مشروب شرقي)/ أنت يا رائحة الزعفران اللاذع/ أنا لم أعد ذلك الطفل الذي يطوف بين أرجل الكبار/ ويلعب السنوكر في مقهى ماركو في اللد/ أنا أتعلم أكل آيس كريم بلّورية الآن أيها الأصدقاء/ من شاحنة تطلق أصوات عصافير/ وفي المساء.. أتعلم كيف أفتح أغطية لصناديق موسيقى عتيقة/ الآن تعلّمني نسوة بنكهة التوت البرّي/ أن أشم مجلّدات شكسبير.. من القرن السابع عشر/ ها هم يعلّمونني أن ألاعب قطّة سياميّة.. في صالون مشجّر».[٣٤]

اليوميّ حاضر بقوّة في شعر بيطون، مع بساطة في السرد، وابتعاد عن التكلّف، وانصرافٍ عن الاستغراق في نسج الصور الشعريّة، وفي حثّ المخيلة، واستدعاء الأسطورة. كلّ تلك السمات، على النقيض من بياليك، تكمن في جوهر المدرسة الواقعيّة في الأدب. إدراك تلك الواقعيّة، بعيدًا عن إطارها النظري، يبقى ذا قيمة جوهريّة عند معالجة قصائد بياليك بقراءةً ناقدة؛ فهو يتفاعل مع الأشياء كما يعايشها، وينقل لنا صورة حسيّة، لا متخيّلة، عن الواقع المحيط، عن «أرض صهيون» اليوميّة، بكلّ تناقضاتها وتفاعلاتها التي لا نراها في مثاليّة بياليك. قراءة بيطون، تبعًا لذلك، توفّر لنا إمكانيّة الاستدلال على ما هو هامشيّ، والهامشيّ يحيل إلى ما هو مهيمن. حتّى في تفاعلاته مع الطبيعة -المقدّسة في قصائد بياليك- ثمّة نبرة «ثورة» على قيمة ما انبنت ضمن سياق ثقافي مهيمن. هكذا يكتب في قصيدته «الكسكس والفرّان»: «كان أبي يقول: نصف بيت في أرض إسرائيل يساوي بيوتًا كثيرةً جيّدة وجميلة خارجها/ لاحقًا أرسلوه لتنظيف المراحيض في بيت نبالا/ وفي أيام لاحقة كان يتعثّر وفي يده معول أو طوريّة.. حول حفرة للشتلات/ في أيام أخرى بدأ يشمّ من التربة والأشجار رائحة الأغيار/ ولأيام لاحقة بدأ يستشعر لغة الأغيار في أحاديث الناس/ وأنا في لحظات من التهكّم والسخرية أقول له/ أوه بابا يوسف.. رموك بالهمزات واللمزات/ وأين أنت وأين أرض إسرائيل؟»[٣٥]

كلّ شيء يقترب ويبتعد في مخيال بيطون، «بين أيام وأخرى»، كما في قصيدته، وإزاء ذلك كلّه، يبقى ثمّة مكان واحد ثابت، لا يتزحزح، ولا يتيه بين الهويّات والأزمنة؛ مكان ما «تصالحيّ»، تمّحي في ثناياه كلّ تلك المتضادّات، ويظلّ حينما تقترب الأشياء تارة وتبتعد، قريبًا دائمًا؛ وهو البحر. ذاك ما يعبّر عنه في ديوانه «عصفورة مغربيّة» حينما يقول: «»في مماشي نتانيا/ أنا على الأرجح وراءكم/ والبحر قريب كما هو دائمًا/ أتذكّر، أسير في شارع مدينة أخرى/ هي هنا ورائي أيضًا/ وفجأة في انعكاساتي عبر نوافذ المتاجر/ أجد وجهي شاخصًا في وجهك». البحر دائمًا قريب إذن، وهو مدعاةٌ للتذكّر: تذكّر ذلك «الآخر» الذي «يسير في شارع مدينة أخرى»، وهو ليس إلا بيطون نفسه. البحر ليس إلا انعكاسات مدن الذاكرة؛ امتدادًا واحدًا، لبيئة واحدة، ولـ«هجرة» لم تكن مكتملة، في الرواية الصهيونية قبل كلّ شيء. ربّما هي الرواية ذاتها التي يحرص بيطون على مشاكستها، ونقضها حتّى ترتدّ إلى ضدّها، وتحديدًا حينما يقول ساخرًا، في انقلابة أخرى على ذلك «الطير» الرمزي: «»أنا أذكى منك أيّها الطير الأوروبي في الشرق الأوسط؛ أنت ضيف بيتي».

في مقابلة أجراها معه حديثًا، يقول ماتي فريدمان: «كان بيطون في شبابه يبحث عن وسيلة لربط موطنه القديم في شمال أفريقيا بموطنه الجديد في إسرائيل. أدرك أن الرابط كان البحر المتوسّط، وفي مطلع الثمانينيات بدأ بالكتابة عن رغبته حول إسرائيل التي يمكن أن ترى نفسها مجتمعًا متوسّطيًّا».[٣٦] ذلك ما ينقله فريدمان على لسان بيطون، وذلك ما يعبّر عنه أيضًا بيطون نفسه بشكل أكثر فصاحة، حينما يقول: «يبدو لي أن الفرق بين (المتوسّطيّة) و(الشرقنة) هو في الدلالة اللفظيّة فحسب، وبخاصّة في الحالة التي أستخدم فيها صيغة (المتوسّطية)، لأن هذه الصيغة يمكن، بسهولة، قبولها في مجتمع شديد الاستقطاب كالذي نعيش فيه».[٣٧] هو يفضّل إذن الإحالة إلى المتوسّط بدلًا من الشرق، وهذه الصيغة، كما يرى، «سوف تمنح وجود الإسرائيليين قوة أصلانيَّة... سوف تنقذنا (الإسرائيليين) من المقارنة مع الصليبيين، الذين كانوا هنا لوقت قصير فحسب».[٣٨]

في قصائده الأولى، ظلّت مسألة البحث عن «الأصلانيّة» معضلة مؤرّقة بالنسبة لبيطون. في قصيدته «حوار مختصر»، المنشورة عام ١٩٧٦، وقت أن كان حراك الشرقيين في إسرائيل قد بلغ أوجه، يُنشد بيطون في نبرة إنكار: «ما الذي يعنيه أن تكون أصلانيًّا؟/ أن تركض وسط شوارع ديزنغوف وتصرخ في لهجة مغربية/ أنا من المغرب، أنا من المغرب».[٣٩] لكن الآن، بعد أربعين

يمكن القول إن البحر، بالنسبة لبيطون، لم يكن امتدادًا للمنفى كما هو لدى بيالك؛ كان عوضًا عن ذلك المتنفّس الوحيد خارج «علب السردين» الموصوفة في قصائده، ووطنَ المنفيّ بين هويّتين. لكن على أيّة حال، لا يذكّرنا ذلك بمقولات مفكّري ما بعد الصهيونية عن «نفي المنفى»، هو بالأحرى، ولدى موضعته ضمن الأيديولوجيا الصهيونية التي يتبنّاها بيطون، يمثّل «تطوّرًا مفاهيميًا لأسطورة «نفي المنفى» ذاتها.

عامًا على حركة «الفهود السود»، و«الانقلاب السياسي»، ينتهي الصراع بين «يعيش» و«إيريز»، عند حدود هذا البحر الذي يموج بين شواطئ مراكش ويافا. والآن أيضًا، بعد سنوات «الثورة» التي ظلّ خلالها يردّد «أنا من المغرب» في شوارع ديزنغوف، يجد ذلك الشاعر الصهيوني هويّته المتّسقة حين يقول: «أنا من المتوسّط».

احتلال البحر

البحر يغطّي اليابسة؛ هو لا يملك حدودًا، هو حرّ. البحر ليس مقسّمًا بين الدولة والناس الموجودين على الأرض، ليس ثمّة برازخ بين المحيطات، لا حواجز أو حدودًا مقيِّدة. الشعوب التي تمتلك قاعدة إقليمية وميناءً قد تجوب العالم، وتقرع كلّ بحر قد يضع حزامًا حول هذا الكوكب. الأرض تشطر الأمم؛ والبحر يوحّدها ويقرّبها. هو ينمّي وحدة البشرية؛ يفتح آفاقًا ومساحات جديدة غير مرئية لنا، نحن الواقفين على الشاطئ». (بن غوريون: ١٩٥٤)[٤٠]

«مثلما جئنا هنا حتّى نجعل الصحراء تورق؛ نحن أتينا أيضًا لاحتلال مساحات البحر» (بن غوريون: ١٩٥٤)[٤١]

.....

في ضوء ما سبق، يمكن القول إن البحر، بالنسبة لبيطون، لم يكن امتدادًا للمنفى كما هو لدى بيالك؛ كان عوضًا عن ذلك المتنفّس الوحيد خارج «علب السردين» الموصوفة في قصائده، ووطنَ المنفيّ بين هويّتين. لكن على أيّة حال، لا يذكّرنا ذلك بمقولات مفكّري ما بعد الصهيونية عن «نفي المنفى»، حين قرؤوا في ذلك المفهوم محوًا للثقافة الشرقية بوصفها ثقافة «منبوذة». هو بالأحرى، ولدى موضعته ضمن الأيديولوجيا الصهيونية التي يتبنّاها بيطون، يمثّل «تطوّرًا مفاهيميًّا لأسطورة «نفي المنفى» ذاتها؛ ذلك أنّ المنفى هنا منفيّ بوصفه حاضرًا لا غائبًا؛ بوصفه صيرورة تاريخيّة متراتبة، ولحظة اتّصال لا انقطاع عن «أرض الميعاد».

الحديث عن إيريز بيطون يعني الحديث عن إسرائيل ما بعد هيمنة الحزب الواحد، «إسرائيل الثانية»، متعددةِ الثقافات، ومتنوّعة الإثنيات، والمفتوحة أكثر من ذي قبل على العوالم البعيدة، وعلى عوالمها الداخلية: إسرائيل الشرقيّة أكثر من أي وقت مضى. ولنا أخيرًا، بعد كلّ هذا النقاش، وفي ظلّ ازدواجيّة «نفي المنفى» تلك، أن نسأل: هل كان هذا المتوسّط «اكتشاف» بيطون وحدَه في إسرائيل، حيث ظلّ «النطاق البحري غائبًا تقريبًا عن الخطاب العام، لدى أمّة غير معروفة بتاريخها أو ثقافتها البحرية»؟[٤٢] وفي أيّ سياق يمكن أن نقرأ ذلك التحوّل الجوهريّ بين ثنائية الجبل والبحر، بوصفهما ثيمة ثقافيّة؟

على هامش السؤال، لا يمكن أن يكون بيطون مجرّد استثناء هنا، فهذا الأخير بعد أن أصبح أوّل شرقي/ سفاردي يفوز بأرفع جائزة أدبية في إسرائيل، وبعد أن أوكلت له مهمّة تأصيل الثقافة الشرقيّة في المناهج الرسميّة بتفويض من وزير التربية والتعليم آنذاك، نفتالي بينت؛ لم يعد مزويًّا إلى هامش المؤسسة، وبات، أخيرًا، جزءًا من الثقافة المهيمنة. يمثّل بيطون هنا أيقونة لإسرائيل التي تنزع نحو الشرقنة؛ إسرائيل التي تخطّت، على الأغلب، مرحلة الانفتاح على العوالم البعيدة، دون أن تبارحها تمامًا، ودخلت أكثر في طور

الانفتاح على محيطها الإقليمي؛ إسرائيل التي لم تعد «أرض اللبن والعسل» فحسب، وصار لـ«الحمص» و«الفلافل» مكان بين رموزها القوميّة؛ إسرائيل التي اختفت فيها المقولة السائدة عن العرب: «يريدون رمينا في البحر»، وصار هذا الأخير، بدلًا من ذلك، ممرًّا إليهم.

من هنا، يظلّ بيطون، كما بياليك، ابن سياقه، وهو بالضرورة سياق استعماري. هذا السياق الثقافي الذي ينادي فيه بيطون بـ«متوسّطيّة» إسرائيل، ويؤسّس لأجل ذلك ما يطلِق عليه اسم «المركز المتوسّطي الدوليّ في إسرائيل للعلاقات الثقافية مع دول المتوسّط والدول العربية»، هو ذاته السياق البيئي/ الجغرافي الذي بدأت تدشّن فيه بلدية تل أبيب (المدينة التي بدت شوارعها، في السابق، وكأنها تهرب من البحر) مشاريع لإنشاء مسارات بحريّة، ومبان حضريّة قبالة المتوسّط، تحت مسمّى «واجهة البحر» و«واجهة شاطئ البحر»، والهدف من ذلك، كما يرد في المخطّط، هو «تعزيز ارتباط المدينة بالبحر، وإنتاج بيئة بحريّة صحيّة».[٤٣] كلا السياقين، في الواقع، لا ينفكّان أيضًا عن السياق الراهن الذي نواكبه؛ عن «صفقة القرن» التي بدأت من جزيرتين إستراتيجيّتين بين البحر الأحمر والمتوسّط، هما تيران وصنافير،[٤٤] والتي غمز أفيغدور ليبرمان من قناتها، على الأرجح، متحدّثًا عن «سلام إقليمي مع العرب» صار أقرب من أي وقت مضى،[٤٥] وهكذا فعل بنيامين نتنياهو أيضًا حينما أبدى حماسة لإتمام مشروع «قناة بن غوريون» لربط البحر المتوسّط بالبحر الأحمر،[٤٦] ولنا أن نستغرق هنا في تأمّل ما يحمله هذا الربط من دلالات تتجاوز الجانب السياسي، وتتعدّاه إلى أبعاد ثقافيّة واستراتيجيّة أكثر عمقًا: الربط بين حلم «السلام الاقتصادي» والسيادة الإقليمية؛ بين المحيط العربي و«الجذور» الأوروبية؛ بين إسرائيل «الشرقية» وإسرائيل «الغربية".

في ظلّ هذا الظرف التاريخي، لم يعد ذلك الخطّ الأزرق على امتداد الخارطة الإسرائيلية مجرّد حدود فاصلة، ولا نافذة مشرعة إزاء الأخطار والأعداء المحتملين. أصبح اليوم امتدادًا مفتوحًا أمام شهيّة المستعمر، ومنجمًا للفرص والثروات. يظهر اليوم حقل «ليفياثان» الغازيّ في أعماق المتوسّط لـ«يبشّر» بتحويل إسرائيل إلى دولة منتجة للطاقة، ويقدّم لها، في ظلّ المعطيات السياسية الراهنة، مفاتيح حلم شمعون بيريس: التحوّل إلى مركز اقتصادي سياديّ في الإقليم. غير أنّ ذلك الاسم الغرائبيّ (ليفياثان) يحفّزنا لـ«التنقيب» أكثر عن دلالته، لا سيما أنّه لا يحمل إيحاءات «إيجابيّة» أو «بشائريّة» في الكتاب المقدّس، إذ يظهر في سفر إشعيا بوصفه «ثعبانًا مقوّسًا» ثمّ «ثعبانًا لولبيًّا»، وكلاهما «سيعاقبه الرب بسيفه العظيم الجبار» في آخر الزمان (إشعيا: ٢٧:١).[٤٧] لكن مفسّر «التناخ»، رغم سوداويّة الصورة التوراتيّة، يرى في ذلك «الوحش» المفترض رمزًا للخير؛ «فالرب ذبح الأنثى لئلا تتكاثر الأنواع، واختزن لحمها للولائم التي ستوهب للصالحين لدى ظهور المسيح».[٤٨] التأمّل في دلالات هذا الرمز البحري قد يوفّر خاتمة جيّدة لهذا النقاش؛ الآن يمكن لنا أن نختصر كلّ تلك المسافة بين بياليك وبيطون، ونقدّم مقولة هذا البحث في صورة مكثّفة: هكذا يتحوّل البحر، في لحظة استعماريّة ما، من رمز للمنفى، لينقلب، في لحظة استعماريّة موازية، إلى رمز لـ«الخلاص».

الهوامش

١ انظر/ي مثلًا:
Gil Z. Hochberg, “The Mediterranean Option”: On the Politics of Regional Affiliation in Current Israeli Cultural Imagination, *Journal of Levantine Studies*, 1, (Summer 2011), 4465-; David Ohana, "The Mediterranean Moment in Israel: From National Borders to Geo-Political Zones", *International Journal of Euro-Mediterranean Studies*, 8, no2 (2015), 2547-; David Ohana, "The Mediterranean Option in Israel: An Introduction to the Thought of Jacqueline Kahanoff." *Mediterranean Historical Review* 21, no. 2 (2006), 23963-; Abigail Wood, "Mediterranean Israeli Music and the Politics of the Aesthetic." *Ethnomusicology Forum* 22, no. 2 (2013), 25658-; Technion. "ISRAEL MARINE PLAN - Technion." Http://msp-israel.net.technion.ac.il/files/201512//MSP_plan.compressed.pdf. 2015. Accessed July 1, 2017; Alexandra Nocke. *Place of the Mediterranean in Modern Israeli Identity*. (Boston: Brill, 2014).

2 S. S. Chetrit, "Revisiting Bialik: A Radical Mizrahi Reading of the Jewish National Poet." *Comparative Literature* 62, no. 1 (2010), p.11.

3 Chetrit, p. 11

4 Chetrit, p.8

5 Chetrit, p.17

6 Atar Hadari, and Dan Miron. *Songs from Bialik*: selected poems of Hayim Nahman Bialik. (Syracuse (N.Y.): Syracuse University Press, 2000), P.36.

7 Hadari and Miron, p.163

8 Hadari and Miron, p.168

9 David Ohana, *The Origins of Israeli Mythology: Neither Canaanites Nor Crusaders*, (Cambridge: Cambridge University Press, 2012), p.191.

10 Sharon Roṭbard, *White city, black city: architecture and war in Tel Aviv and Jaffa*. (London: Pluto Press, 2015), P.16.

11 Ohana, *The Origins of Israeli Mythology*, p.192.

12 Benjamin Glatt, "On wings of eagles: Operation to bring Yemenite Jews to Israel." *The Jerusalem Post* | JPost.com. (82016/11/). Accessed October 1, 2021. http://www.jpost.com/Christian-News/On-wings-of-eagles-Operation-to-bring-Yemenite-Jews-to-Israel-471982.

13 Jean F. Blashfield, *Golda Meir*. (New York: Marshall Cavendish Benchmark, 2011), p.77.

14 "Wellspring of Ruins." Operation Magic Carpet. Accessed July 1, 2017. http://rhruins.blogspot.com/201012//operation-magic-carpet.html.

15 Blashfield, p. 77

16 Hanan Hever, "We have not arrived from the sea: a Mizrahi literary geography." *Social Identities* 10, no. 1 (2004): p.38.

17 Hever, p. 38

18 Benjamin Glatt, "On wings of eagles: Operation to bring Yemenite Jews to Israel." *The Jerusalem Post* | JPost.com. (82016/11/). Accessed October 1, 2021. http://www.jpost.com/Christian-News/On-wings-of-eagles-Operation-to-bring-Yemenite-Jews-to-Israel-471982.

19 Jewish Virtual Library, "Immigration to Israel." Operation Ezra & Nehemia - The Airlift of Iraqi Jews. Accessed July 1, 2017. http://www.jewishvirtuallibrary.org/operation-ezra-and-nehemia-the-airlift-of-iraqi-jews.

20 Daniel Raviv and Yossi Melman. *Every Spy a Prince: The Complete History of Israels Intelligence Community*. (Boston, Mass: Houghton Mifflin, 1991), p.122.

21 Hever, p.34.

٢٢ سليم تماري، "إسحق الشامي ومعضلة اليهودي العربي في فلسطين"، مجلة الدراسات الفلسطينية، ع.٥٩ (صيف ٢٠٠٤)، ص.٦٨.

23 Hever, p.3738-.

24 Hever, p.38.

25 Yitzhak Gormezano Goren, *Alexandrian summer*. (New York: New Vessel Press, 2015). p.3

26 Chetrit, p.34-.

27 Hever, p.30

28 Ken Brown, "Sometimes I Have a Feeling of Foreignness" A Conversation with Erez Biton", Middle East Research and Information Project, 92 (November/December 1980). Accessed November 01, 2021. http://www.merip.org/mer/mer92/sometimes-i-have-feeling-foreignness.

29 Hever, p.17.

30 Hever, p.11.

٣١ قصيدة حاييم نحمان بياليك "وراء البحر" باللغة العبرية, ٢٠١٧/٧/١
http://shironet.mako.co.il/artist?type=lyrics&lang=1&prfid=400&wrkid=14981 Accessed November 01, 2021

32 Eli Eliyahu, "First Mizrahi to win Israel›s literature prize was wounded by a grenade and healed by poetry." Haaretz.com. November 05, 2015. Accessed November 01, 2021. http://www.haaretz.com/israel-news/.premium-1.654350.

33 Ken Brown, "Sometimes I Have a Feeling of Foreignness" A Conversation with Erez Biton", Middle East Research and Information Project, 92 (November/December 1980).

34 Lev Hakak, "Estranged nightingales on poetry written by near eastern Jewish in Israe", *Hebrew Annual Review* 11 (1987): p.144.

٣٥ ألموغ بهار، "لأدفن هنا بين الذين يعيشون في سنوات الخمسين في مدينة اللد"، موقع صحيفة هآرتس، ٢٠٠٩/١٠/٣٠ (عبرية) http://www.haaretz.co.il/literature/1.1287668. (أخر مشاهدة في ٢٠٢١/١١/١٥)

36 Matti friedman, "Homer of Lod: The Indispensability of Erez Bitton". *Jewish Review of Books*, (spring 2017). Accessed November 1, 2021. https://jewishreviewofbooks.com/articles/2528/homer-of-lod-the-indispensability-of-erez-bitton/.

37 Hever, p.190.

38 Hever, p.190.

39 Adia Mendelson-Maoz, *Multiculturalism in Israel*: Literary Perspectives. (Ashland: Purdue University Press, 2015), p.86.

40 Hever, p.188.

41 Hever, p.188.

42 Report of the Commission on the Eastern Mediterranean, UNIVERSITY OF HAIFA AND HUDSON INSTITUTE, (September 2016), Accessed at 1 July 2021, p.6 http://poli.haifa.ac.il/~hms/images/publications/HaifaHudsonReport.pdf.

٤٣ بلديـــة تـــل أبيـــب، تطويـــر الحيـــز العـــام- تجـــدد حـــضري عـــلى امتـــداد واجهـــة الشـــاطئ https://telaviv.gov.il/Forms/%D7%9E%D7%A6%D7%92%D7%AA%20%D7%97%D7%95%D7%A3%20%D7%94%D7%99%D7%9D.pdf (آخـــر مشـــاهدة في ١/ ١١/ ٢٠٢١)

وأيضًـا، بلديـة تـل أبيـب، منطقـة "سـديه دوف" (آخـر مشـاهدة في ١/١١/٢٠٢١)

https://www.tel-aviv.gov.il/Forms/%D79%E%D7%A4%D792%%D7%A920%

44 "Israeli commentator: 'The deal of the century' for Trump. What role for Bin Salman?" Middle East Monitor. (72017/5/). Accessed July 1, 2021. https://www.middleeastmonitor.com/20170507-israeli-commentator-the-deal-of-the-century-for-trump-what-role-for-bin-salman/.

٤٥ "الحيـــاة الجديـــدة"، ليبرمـــان: إسرائيـــل أقـــرب مـــن أي وقـــت مـضى لتسـوية إقليميـة مـع العالـم العربـي، (٩/٦/٢٠١٧)، آخـر مشـاهدة: ١ تمـوز ٢٠١٧. http://www.alhaya.ps/ar_page.php?id=2c6c10cy46579980Y2c6c10c

46 Blair Cunningham, "New rail freight link could become ‹Israel›s Suez Canal›" Haaretz.com. (142014/2/) Accessed July 01, 2021. http://www.haaretz.com/israel-news/.premium-1.574175

47 Isiah, Accessed 1 November 2021, http://www.mechon-mamre.org/p/pt/pt1027.htm#1

48 "Bereishit - Genesis - Chapter 1 (Parshah Bereishit)." (Parshah Bereishit) - Tanakh Online - Torah - Bible. Accessed November 01, 2021. http://www.chabad.org/library/bible_cdo/aid/8165#showrashi=true.